(نهج البلاغة)، فقهُ القلب والحياة
أوّله كَوَسطِه، وأوسطُه كَآخِره*

إعداد: «شعائر»

إنّ (نهج البلاغة) «فوقَ كلام المخلوق ودونَ كلام الخالق»، بَيْد أنّ البعض في مِرْيَةٍ من صدوره عن أمير المؤمنين عليه السلام. وهذه الشُّبهة المُثارة حول هذا الكتاب الجليل كانت في عصر ابن أبي الحديد حين بدأ شرحَه له، إذ دسّها عليه «جماعةٌ من أهل الأهواء».

يقول ابن أبي الحديد المعتزليّ (ت: ٦٥٦ للهجرة) في شرحه على (نهج البلاغة): «كثيرٌ من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من (نهج البلاغة) كلامٌ مُحدَثٌ، صَنَعَه قومٌ من فُصَحاء الشّيعة! وربّما عَزَوا بعضه إلى الرّضيّ أبي الحسن أو غيره! وهؤلاء أَعْمَت العصبيّة أعينهم فَضَلُّوا عن النَّهج الواضح، وركبوا بُنيّات الطّريق [بنيّات الطّريق: الطّريق الصّغيرة المتشعّبة من الجادّة] ضلالاً وقلّة معرفةٍ بأساليب الكلام».

وتبعاً لِزَيغ هؤلاء الضُلّال، أُثيرت هذه الدّسيسة أيضاً في العصور اللّاحقة، فقد طرحها من المُستشرقين: «مسيو ديمومين» و«كارل بروكلمان»، ومن كتّاب العرب: «جرجي زيدان». وساقوا على زعمهم أدلّة باطلة.

ولعلّ عدم إدراج سَنَد الحديث في نُصوصه هو الّذي حدا البعض -في أوّل نظرةٍ له- ألّا يَخالَ هذا الوهم بعيداً عن الحقيقة، فيتورّط في فخّ هذا الخطأ.

ومن الممهِّدات الأُخرى لهذه الشّبهة، هي أنّ الشّريف الرّضيّ كان شيعيّاً ذا مودّةٍ لآل البيت عليهم السلام، وكان أديباً مقتدراً وشاعراً مُفلّقاً في آنٍ واحد. فقد قال الدّكتور شفيع السّيّد -وهو أحد المُمتَرين في سند النَّهج: «انتماءُ الشّريف الرّضيّ إلى البيت العلويّ يَسَّرَ الشّكَّ في صحّة قوله واحتمال تعصّبه وانحيازه إلى عليّ. وقال بعضُ مَن كَتَب حوله: كان شاعراً ذَلَّ له قيادُ الطّبع، وكان له لسانٌ طَلِقٌ لَبِق، ومع قدرته في الشّعر كان بليغاً مقتدراً في النّثر أيضاً».

هذا في الوقت الّذي يستبين فيه وَهْنُ هذا الوَهم وضعفُه بأدنى تأمّل، وتَنجلي الحقيقةُ القائلةُ بأنّ النّهج الّذي هو «فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق» قد صدر عن مولى المتّقين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وبلحاظ أنّ الشُّبهات التّقليديّة المُثارة حول (نهج البلاغة) باتت مستهلَكة، فقد انبرى للرّدّ عليها -قديماً وحديثاً- طائفةٌ من المؤرّخين والمحدّثين، فبيّنوا مكامنَ الخَلَل والتّهافت فيها، بحيث لم يعد يتمسّك بها إلّا معاندٌ أو مكابرٌ، يمكننا بنظرةٍ عامّة أن نقدّم أدلّةً إضافيّةً على صحّة هذا الكتاب الجليل، نوجزُها بما يأتي:

أ. **سَبْكُ الكلام وأُسلوبه**: فكلُّ مَن ذاق حلاوة الأدب العربيّ وخَبَره يسيراً، أَدركَ بعد التّأمّل في (نهج البلاغة) أنّ ألفاظه لم تَصدر عن شاعرٍ أو خطيبٍ عاديٍّ، ولم تتيسّر إلّا لأمير خطباء العرب وفصحائهم. وهو الّذي قال فيه ابنُ أبي الحديد: «عليٌّ إمامُ الفصحاء، وسيّد البلغاء؛ وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين. ومنه تعلّم النّاسُ الخطابة والكتابة». وإذا شارف الأدباء والخطباء برمّتهم هذا الكتاب نطقوا بالثّناء عليه من جهة، واعترفوا بعجزهم عن وصفه وبلوغ شَأْوِه وعُمْقه من جهة أُخرى، وأكبروه فعدّوه منهل البلاغة والخطابة، وأماطوا اللّثام عنه من جهةٍ ثالثة، حتّى إنّهم رأوا في كلّ نظرة متجدّدة إليه قبساتٍ بديعة، وأصابوا منه رشفاتٍ مُريعة.

قال عبد الحميد بن يحيى الكاتب إنّه حفظ سبعين خطبة من خُطب أمير المؤمنين عليه السلام: «ففاضت ثمّ فاضت». وقال ابن نُباتة: «حفظتُ من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاقُ إلّا سعةً وكثرةً. حفظتُ مائة فصلٍ من مواعظ عليّ بن أبي طالب». ونقل ابن أبي الحديد في

* نقلاً عن الموقع الالكترونيّ imamreza.net

موضعٍ من شرحه عن ابن الخشّاب حين قيل له: «إنّ كثيراً من النّاس يقولون إنّها [الخطبة الشقشقيّة] من كلام الرّضيّ رحمه الله. فقال: أنّى للرّضيّ ولغير الرّضيّ هذا النَّفَس وهذا الأُسلوب؟! قد وَقَفْنا على رسائل الرّضيّ، وعرفنا طريقتَه وفنَّه في الكلام المنثور، [ولا يشبه هذا الكلام في شيء]».

ب. الانسجام والتّماسك الباطنيّ: إنّ الانسجام والتَّماسك الباطنيّ في مجموعةٍ ما من أهمّ الأدلّة على أصالتها وعلوّ شأنها. نلحظُ في القرآن الكريم أنّه عندما أشار إلى شُبهة الكافرين في صدور القرآن عن النّبيّ صلى الله عليه وآله، أجاب: ﴿..وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ النساء:٨٢.

وهذا الدّليل من أهمّ الأدلّة الّتي تَعرَّض لها ابنُ أبي الحديد، فقال: «لا يخلو إمّا أن يكون كلّ (نهج البلاغة) مصنوعاً منحولاً، أو بعضُه.

والأوّل باطلٌ بالضّرورة؛ لأنّا نعلمُ بالتَّواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام؛ وقد نَقل المحدّثون -كلّهم أو جُلّهم- والمؤرّخون كثيراً منه، وليسوا من الشّيعة ليُنسبوا إلى غرَضٍ في ذلك.

والثّاني يدلّ على ما قلناه؛ لأنّ مَن قد أَنِسَ بالكلام والخطابة، وشدا طَرَفاً من علمِ البيان، وصار له ذَوْقٌ في هذا الباب، لا بدّ أن يفرِّقَ بين الكلام الرَّكيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولَّد. وإذا وَقفَ على كرّاسٍ واحدٍ يَتضمّن كلاماً لجماعةٍ من الخطباء أو لاثنين منهم فقط، فلا بدّ أن يفرِّق بين الكلامَين، ويُميِّز بين الطّريقتَين؛ ألا ترى أنّا مع معرفتنا بالشّعر ونقدِه، لو تصفّحنا ديوان أبي تمّام، فوجدناه قد كُتِبَ في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره لعرفنا بالذّوق مباينتها لِشعر أبي تمّام نفسه، وطريقته ومذهبه في القريض؟ ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشّأن، حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولةً إليه لِمُباينتها لمذهبِه في الشّعر؟ وكذلك حذفوا من شعر أبي نؤاس كثيراً لَمّا ظهر لهم أنّه ليس من ألفاظه ولا من شِعره؛ وكذلك غيرهما من الشّعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلّا على الذّوق خاصّة.

وأنت إذا تأمّلت (نهج البلاغة) وجدْتَه كلّه ماءً واحداً، ونَفَساً واحداً، وأسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الّذي ليس بعضٌ من أبعاضِه مخالِفاً لباقي الأبعاض في الماهيّة؛ وكالقرآن العزيز: أوّلُه كَوسطِه، وأوْسطُه كآخِرِه، وكلُّ سورةٍ منه، وكلُّ آيةٍ، مماثلة في المأخَذ والمذهب والفنّ والطّريق والنَّظْم لباقي الآيات والسّوَر.

ولو كان بعضُ (نهج البلاغة) منحولاً، وبعضُه صحيحاً لم يكن ذلك كذلك؛ فقد ظَهر لكَ بالبرهان الواضح ضلالُ مَن زعم أنّ هذا الكتابَ أو بعضَه منحولٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

واعلم أنّ قائل هذا القول يَطرُق على نفسه ما لا قِبَل له به، لأنّا متى فتحنا هذا الباب، وسلَّطنا الشّكوك على أنفسنا في هذ النَّحو، لم نَثِق بصحّة كلامٍ منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً، وساغ لِطاعنٍ أن يَطعن ويقول: هذا الخبر منحول، وهذا الكلام مصنوع، وكلّ

وأنت إذا تأمّلت (نهج البلاغة) وجدْتَه كلّه ماءً واحداً، ونَفَساً واحداً، وأسلوباً واحداً، كالجسمِ البسيطِ الّذي ليس بعض من أبعاضِه مخالِفاً لباقي الأبعاض في الماهيّة؛ وكالقرآن العزيز: أوّلُه كَوسطِه، وأوْسطُه كآخِرِه.

أمرٍ جعله هذا الطّاعن مستنَداً له في ما يرويه عن النّبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة الرّاشدين والصّحابة والتّابعين والشّعراء والمترسّلين والخطباء؛ فلِناصِري أمير المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مثله في ما يروونه عنه من (نهج البلاغة) وغيره؛ وهذا واضح».

ج. انسجام المضمون مع سائر الأحاديث: إنّ كثيراً ممّا جاء في (نهج البلاغة) في: الميادين الكلاميّة، والأخلاقيّة، والاجتماعيّة، وغيرها، ينسجم مع ما أُثِر عن النّبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام في هذا المجال. وهذا الانسجام واضحٌ ملموس، وهو دليلٌ آخَر على أنّ الوارد فيه يفيض ممّا تفيض منه كلمات المعصومين عليهم السلام، فنَبْعهُما واحد. ولعلّ في المقطع الأخير من كلام ابن أبي الحديد المذكور إشارةً إلى هذا الدّليل.

د. الرّصيد التّاريخيّ للرّوايات المذكورة في نهج البلاغة: المأثورُ في (نهج البلاغة) ملحوظٌ أيضاً في المصادر الشّيعيّة والسّنيّة المتقدّمة عليه أو المتأخّرة عنه. وما محاولة الشّريف الرّضيّ في جمع كلمات الإمام عليه السلام إلّا نموذجٌ واحد من محاولاتٍ عَزم عليها مشهورون قبله.

قال محمّد أبو الفضل إبراهيم في مقدّمته على شرح ابن أبي الحديد: «..فقد حاول كثيرٌ من العلماء والأدباء على مرّ العصور أن يُفردوا لكلامه كُتباً خاصّة ودواوين مستقلّة، بقيَ بعضُها وذهبَ الكثيرُ منها على الأيّام؛ منهم: نصر بن مزاحم صاحب (صِفّين)، وأبو المنذر هشام بن محمّد السّائب الكلبيّ، وأبو مِخْنَف لوط بن يحيى الأزديّ، ومحمّد بن عمر الواقديّ، وأبو الحسن عليّ بن محمّد المدائنيّ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وأبو الحسن عليّ بن الحسين المسعوديّ، وأبو عبدالله محمّد بن سلامة القُضاعيّ، وعبد الواحد بن محمّد بن عبد الواحد التّميميّ، ورشيد الدّين محمّد بن محمّد المعروف بالوَطْواط، وعزّ الدّين عبد الحميد بن أبي الحديد، وغيرهم كثيرون».

المأثورُ في (نهج البلاغة) ملحوظٌ أيضاً في المصادر الشّيعيّة والسّنيّة المتقدّمة عليه، وما محاولةُ الشّريف الرّضيّ في جمع كلمات الإمام عليه السّلام إلّا نموذجٌ واحد من محاولاتٍ عَزم عليها آخرون قبله.

ونَقل ابنُ أبي الحديد في موضعٍ من شرحه في ذَيْلِ الخطبة الشّقشقيّة عن ابن الخشّاب، أنّه قال: «والله، لقد وقفتُ على هذه الخطبة في كُتُبٍ صُنِّفت قبل أن يُخلَق الرّضيّ بمائتَي سنة. ولقد وجدتُها مسطورةً بخطوطٍ أعرفُها، وأعرفُ خطوطَ مَنْ هو مِن العلماء وأهل الأدب، قبل أن يُخلَق النَّقيب أبو أحمد والدُ الرّضيّ».

ويضيف ابن أبي الحديد قائلاً: «وقد وجدتُ أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البَلْخيّ إمام البغداديّين من المعتزلة، قبل أن يُخلَق الرّضيّ بمدّة طويلة، ووجدتُ أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبّة أحد متكلّمي الإماميّة، وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب (الإنصاف)، ومات [ابن قبّة] في ذلك العصر قبل أن يكون الرّضيّ رحمه الله تعالى موجوداً».

استخرجَ الشّريفُ الرّضيُّ نصوص (نهج البلاغة) من كُتُبٍ صُنِّفت قبله، منها: (البيان والتّبيين) للجاحظ، و(المقتضب) للمبرّد، و(المغازي) لسعيد بن يحيى، و(الجمل) للواقديّ، و(المقامات) لأبي جعفر الإسكافيّ، و(تاريخ الطّبريّ)، وغيرها.

واستنبط محمّد أبو الفضل إبراهيم -في مقدّمته على الشّرح- من تضاعيف (نهج البلاغة) أنّ الشّريف الرّضيّ استخرج الخُطَب، والكُتُب، والحِكمَ من كُتُبٍ صُنِّفت قبله، منها: (البيان والتّبيين) للجاحظ، و(المقتضب) للمبرّد، و(المغازي) لسعيد بن يحيى الأمويّ؛ و(الجُمَل) للواقديّ، و(المقامات في مناقب أمير المؤمنين) لأبي جعفرٍ الإسكافيّ، و(تاريخ الطّبريّ)، وحكاية أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام، ورواية اليمانيّ عن أحمد بن قتيبة، وما وُجد بخطّ هشام بن الكلبيّ، ومصادر أُخَر من هذا الضّرب.

على أيّ حالٍ، صُنِّفت كُتُب ورسائل مستقلّة في أسانيد الخطب، والكُتُب، والكلمات القصار في (نهج البلاغة)، وذُكر فيها عنوان كلّ رواية في عددٍ من الكُتب أو الرّسائل بنحوٍ مستقلّ.

ومراجعةٌ لكتاب (استناد نهج البلاغة) لامتياز عليّ خان القرشيّ، و(مصادر نهج البلاغة وأسانيده) للسّيّد عبد الزّهراء الحسينيّ، و(دراسة في أسناد نهج البلاغة ومداركه) [بالفارسيّة] للسّيّد محمّد مهدي الجعفريّ، و(مدارك نهج البلاغة) لرضا أستاديّ، و(مصادر ومراجع نهج البلاغة) لمحمّد دشتيّ وكاظم محمّديّ.. هذه المراجعة تُقدّم لنا نماذجَ من «أسناد نهج البلاغة».

العلمانيّة اللّبنانيّة المُستحيلة
طائفيّةُ لبنان المُنتَصِرة

محمود إبراهيم

يعود السِّجالُ في لبنان ليَستأنفَ دورتَه التّقليديّة في فضاء الاحتدام على جبهتَي الطّائفيّة والعلمانيّة. ولمَّا لم يكن في الأمر ما يدعو إلى الاستهجان، يبقى في الصُّورة ما يبرِّر الكلام على اللِّقاء المستحيل بين النِّظام الطَّائفيّ وطموحات فئةٍ واسعةٍ من اللّبنانيّين إلى مغادرة قيوده الصَّمّاء.

ربَّما كانت شائعة «الزَّواج المدنيّ» و«قانون الانتخاب» من أبرز العناوين الّتي تستعيد النّقاش المديد حول استحالة تحرُّر اللّبنانيّين من قيود النّظام الطّائفيّ.

فما الّذي يمكن استيلادُه من نقاشٍ كهذا؟

أكثرُ شيءٍ يحيِّرُ كثرةً من اللُّبنانيّين ولا يَملكون جواباً عليه، هو ذلك المُركَّب العجيب من المُساكنة بين العلمانيّ والطّائفيّ. فلا أحد من بين تلك الكثرة يستطيع أن يُعيِّن -بدقَّة- طبيعة، ولون، وماهيَّة النِّظام السّياسيّ في لبنان. فلا هو نظامٌ طائفيٌّ صافٍ، ولا هو كذلك نظامٌ علمانيٌّ بالمعنى الذي يُفهم منه فَصْلُ الدّولة عن الدِّين. وهو بطبيعة الحال نظامٌ لم يتركَّب على مصالَحةٍ مُعلنة بين طرفَين، يَبلغ الاحتدامُ بينهما حدَّ الانتفاء المُتبادَل.

الحاصل في لبنان هو ضربٌ من المفارقةِ يَظهر فيها الواقعُ السّياسيُّ الاجتماعيُّ وكأنَّه جامع التّناقضات الثّلاث، حيثُ تَتساكن العلمانيّة مع الطّائفيّة من دون عَقْد. فليس ثمَّة اعترافٍ متبادَل بينهما؛ بل شيءٌ من القبول الكاذب، تبدو فيه الطّائفيّةُ أشبه بوِعاءٍ يَحوي ألواناً وأفكاراً واعتقاداتٍ وأهواءَ لا حَصْرَ لها...

كيف لي أن أكونَ لبنانيّاً؟

هكذا يُسائل العلمانيُّ اللّبنانيُّ نفسَه اليوم كغريبٍ لا ميراثَ له في منازل الأهل. يَتطلَّع حواليه لِيَجِد كيف أحاطت به طائفيّاتٌ من كلِّ جانب. حتّى أنّها اكتظّت به واكتظّ بها، فلا يَكاد يَرغبُ مخرجاً من أسوارِها المُغلقة. لكنَّه، وهو على هذه الحال، يَظلُّ على يقينٍ مقيمٍ بأنَّ الحصارَ المضروبَ من حوله لا يَتأتّى من خصومٍ مرئيِّين لكي تَظهرَ أمامَه الحدودُ والتُّخوم والخيارات. إنَّه يَشعر وكأنَّه محاصرٌ من بيتِ أبيه. فلا يُغادرُ هذا البيت إلَّا ليَعود إليه. لكأنَّ منازلَ الطَّوائف أمكنةٌ مبنيَّةٌ على حُكْمِ القضاءِ والقدَر.

الحاصلُ -على وجه العموم- هو خلافُ ما يخالفُ قَدَرَ الطّائفيّة وقضاءَها. فالصُّورة الّتي يَجِدُ العلمانيُّ اللّبنانيُّ نفسَه في داخلها، هي أشبه بـ «قلعةٍ صمّاء» يَستحيل عليه مغادرتها؛ أو كَمَن لا مناصَّ له إلَّا التّكيُّف مع أنظمتها الصّارمة: عليه أن يَكتفيَ بأن يعيشَ علمانيَّته في ذهنِه ويعيشَ طائفيَّته في الخارج، كما يقول المُتفلسفة. إلَّا أنَّه -أي العلمانيّ- لا يَلبث حين يَأخذه الظَّنُّ أنَّه بالِغٌ «لبنانيّة صافية من أيِّ شائبة»، حتّى يَغشاهُ الوهمُ وتَصدمه الخيبةُ. فإذا به يعود القهقرى إلى محلِّ الاشتباه إيّاه، ثمَّ يَنبري إلى ما يُشبِه التَّوقيع على هويَّةٍ ناقصة.

أكثر شيءٍ يحيِّرُ كثرةً من اللُّبنانيّين، هو ذلك المُركَّب العجيب من المُساكنة بين العلمانيّ والطّائفيّ. فلا أحد يستطيع أن يُعيِّن -بدقَّة- طبيعة، ولون، وماهيَّة النِّظام السّياسيّ في لبنان.

رؤيةُ اللّاطائفيِّين إلى حالِ لبنان اليوم هي نفسها الّتي يُعيدونها كلَّما رفعوا الشَّكوى على ما هم عليه من: «انتَصرَت الطّائفيّة، وتفوَّقت المذهبيّة، وتراجعت المُواطنيّة، وفَشلت العلمانيّة، ونَأت

الدّيموقراطيّة، ودخل لبنان في القرونِ الوسطى وأقامَ في ماضِيه».

من طَرَفِنا نُضيف إليه الآتي: ما كانت الطّائفيّة اللّبنانيّة إلّا مُنتصرة، وحين حلّتْ على أرضِ انتصارها، أسّسَت للماضي فيما هي تؤسِّسُ للحاضر والمستقبل. معها بات لبنان أدنى إلى مستوطناتٍ مُتَشظِّية منه إلى وطنٍ موصول. أمّا في داخل قلاع الطّائفيّة الصمّاء، فلا عقلانيّة بخارجةٍ عن عقلانيّتها، ولا مواطنيّةَ تنأى من خرائطِها المَرسومة بإحكام. حتّى لقد صارت العقلانيّةُ الطّائفيّة طَبْعاً حميماً لِطَبائع النّاس على الجملة.

لا بدَّ إذاً من عقلانيّةٍ مُعاكِسة. لكن من أينَ الطَّريق إليها؟

عقلانيّةُ جمع الأضداد، والشّرائط

إذا كان لا مهرب من ذلك، فلَنا أنْ نقترحَ على العلمانيِّ اللُّبنانيّ ما نسمِّيه بـ «عقلانيّة جمع الأضداد». نقول هذا ولو لم يوافقنا «مَناطقة» الطَّوائف وفلاسفتهم على مثل هذا الدَّعوى المُفارقة.

في تعريفنا الإجماليّ لهذه العقلانيّة، سوف نَجِدُ **أوّلَ شرائطِها** في الصَّبر على ما نَسْتَكْرِه من عقلانيّة الطَّوائف، مثلما نَجِده في الصَّبر على ما نحبُّ ممّا نأتنِسُ إليه من أفكارٍ وظنونٍ وخواطرَ جميلة.

وثاني شرائطها، التَّبصُّر بالنَّشأة الأولى للبنان؛ أي بالظُّروف والأوضاع والأحوال الّتي حَكَمت هذا البلد منذ تأسيسِه كَكيانٍ سياسيٍّ ودولة، في الرُّبع الأوَّل من القرن العشرين. فلو عَرَفْنا النَّشأةَ الأولى كيف جَرَت، لَهانَت علينا كيف تَجري النَّشآتُ التّالية الأخرى.

وثالث شرائطها، إدراكُ المسافات الطَّفيفة بين «طَلَب الحقائق» الّذي يَبسطُ للنَّاس أماكنهم الآمنة والسّعيدة، و«صناعة الحقائق» بوصفها مهنةَ الأقوياء الّذين يُقيمون الموازين على أحكام الوقائع الصَّارمة، لا على أحكامِ القيمةِ والاعتبار.

وأمّا رابع الشَّرائط، وليس آخرها، فإنَّه في تدبُّر المفاهيم الوافدة إلينا من عُصورِ الحداثة القريبة والبعيدة، وهي المفاهيم الّتي أخذناها عن ظهرِ قلبٍ على الجملة: مفهوم الدَّولة – مفهوم العَلمنة – مفهوم المجتمع المدنيّ – مفهوم المواطنيّة – إلى آخر السّلسلة ممّا شقّ علينا أنْ نَجِد لها منفذاً على مهادِ مستوطناتِنا المُترامية الأطراف، من النَّاقورة إلى النَّهر الكبير، إلى ما تبقَّى من ذاكرة الأقضية الأربعة..

ما كانت الطّائفيّة اللّبنانيّة إلّا مُنتصرة، وحين حلّتْ على أرض انتصارها، أسَّسَت للماضي فيما هي تؤسِّسُ للحاضر والمستقبل. معها بات لبنان أدنى إلى مستوطناتٍ مُتَشظِّية منه إلى وطنٍ موصول.

إنَّنا اليوم نبدو كما لو أنَّنا باقون على سيرتنا الأولى: على شيءٍ سَمَّوْه وطناً. على شيءٍ ليس مثلَه شيءٌ لا في الأوطان القريبة، ولا في تلك العامِرة في أقصى الأرض.

***

لمْ أعثر، شأني شأن كثيرين من اللّاطائفيّين اللّبنانيّين، على ضالَّتين، كأنْ أَجِدَ بابَ الضَّوء لكي أُفارقَ تشاؤمَ اللّبنانيّين المُزمن... حتَّى لَأكاد أُعلن عن خَشيَتي البالغة: من أنْ يَصِلَ اللّبنانيّ اللّاطائفيّ إلى الدّرجة التي يقول فيها: لن أكون لبنانيّاً أبداً...

تلك خَشيةٌ ما زلتُ أحرصُ على أنْ أَضَعَها في مقامِ الاحتمال، دون مقام التَّحقُّق. وهذا مصدر تفاؤلي المُفرط. مع أنَّ كلّ يومٍ يمرُّ من عمر مستوطنات الطَّوائف، والمذاهب، والحزبيّات الضّيّقة، يقصُّ من حَبْلِ الفألِ والرَّجاء قطعةً إضافيّة.

إنَّنا اليوم نبدو كما لو أنَّنا باقون على سيرتنا الأولى: على شيءٍ سَمَّوْه وطناً. على شيءٍ ليس مثلَه شيءٌ لا في الأوطان القريبة، ولا في تلك العامِرة في أقصى الأرض.

لكن حتَّى ذلك الحين الّذي يَنفسح لبنان فيه عن طَوْرٍ آخر، لِنبحث عمّا ينجِّينا من رمال الطَّوائف المتحرِّكة.